١ — وليم مكدوجل

بقـلم

كمال دسوقى

المدرس بالمنصورة الثانوية

« بمدخل مكدوجل إلى علم النفس الاجتماعى ١٩٠٨ يبدأ عهد جديد : فهنا يقدم مكدوجل تحليلا للطبيعة الإنسانية وكأنها طائفة من الميول الفريزية يؤمن هو بجوهريتها فى الحياة الجمعية ... وقد كانت هذه النظرية أول الأمر هجوماً على نزعة اللذة الحسية التى سيطرت على كثير من الفكر الانجليزي طوال القرن التاسع عشر (١) »

جاردنر ميرفى

تستطيع المذاهب المختلفة اليوم فى علم النفس أن تقوم ، لأن هنالك علم نفس عام حر معترف به قائم بذاته — يمكن أن يقوم عليه هذا المذهب أو ذاك ، فأما منذ ما يقرب من نصف قرن — أى قبل أن يصدر مكدوجل كتابه بقليل ، فلم يكن من الممكن أن يقوم واحد من هذه المذاهب . لأنها — كما قلنا — لا تنشأ إلا فى ظلال علم نفس قائم بذاته له شخصيته وكيانه ، إن لم تكن له السيطرة على علوم أخرى ، وحتى أصدر مكدوجل كتابه هذا ، لم يكن لهذا العلم حتى مجرد الاعتراف بوجوده .

ولعلنا بعد هذا لانخطئ إذا عددنا « مكدوجل » ظاهرة فى تاريخ علم النفس لم يكن من وجودها بد ، ولعل من الإنصاف أيضاً أن نعترف له بأنه قد أعاد إلى علم النفس اعتباره السابق الذى سلبته إياه المدرسة الاجتماعية الفرنسية — منذ أوجست كونت — بتوزيعه نهباً مقسما بين البيولوجية والاجتماع ، فكان على علماء النفس الذين عاصروا هذا العهد أو جاءوا بعده أن يردوا إلى هذا العلم مكانته ،

(١) Gardner Murphy: An Historical Introduction to Modern Psychology. 4th ed. Lond. 1938 p. 293.

ويثبتوا من جديد وجوده . وأن يعيدوا النظر فيه على أساس يجعل منه علماً قائماً بذاته .

وتلك ظاهرة واتجاه فى علم النفس لم نشهد لها مثيلا فى تاريخ هذا العلم منذ قال به أرسطو ، كما أن البحث فى قيمة علم النفس ومحاولة إثبات وجوده لم يتجه إليهما أحد من علماء النفس فيما قبل ذلك العهد — لأن من المعروف أن العلم إذا توفر له موضوع خاص ، وغاية معينة ينفرد بها فما عليه إلا أن يخطو الخطوة الفعلية فى سبيل الوجود والتحقق . وأى موضوع أظهر من النفس ، وهى التى أجمع الفلاسفة بحق على أن تعرفها أيسر بكثير من تعرف قوى البدن الظاهرة ، والتى ليس إلى الشك فى وجودها من سبيل ؟ ثم أية غاية أشرف من تعرف النفس والإقبال على دراستها ، واكتناه ظواهرها وأسرارها للوقوف على مبلغ أفاعيلها ووظائفها ؟ بل إن هذا العلم لينفرد فوق ذلك بمنهج خاص من بين مناهجه لا يشاركه فيه علم آخر ، ونعنى به منهج الاستبطان introspection فما على المرء — كما لاحظ ديكارت وابن سينا — إلا أن يغلق من دون نفسه أبواب الحواس . أو على حد تعبير ملتون John Milton أبواب المعرفة الخمسة The five gates of knowledge لكى يشعر بوجود نفسه ويقف على ظواهرها وآثارها الدالة عليها — فما الذى يمنع بعد هذا من قيام علم خاص بالنفس ، ما دام قد توافر له الموضوع والمنهج والغاية ؟

من أجل ذلك لم يحاول القدماء — فيما قبل « مكدوجل » — أن يراجعوا هذا العلم يتعرفون قيمته ومبلغ ما له من صحة — إذ لم يكن ثمت ما يدعو إلى إثبات شىء وجوده متحقق بالفعل — ولا إلى إقامة البينة على شىء بين بذاته self evident — فإن المعلوم — كما يقول الغزالى — إذا طلب فقد — إنما تكون مراجعة العلم واختباره حين يبدو هناك شك أو إنكار لقيمته — فكيف وقد أنكرته المدرسة الاجتماعية الفرنسية انكاراً تاماً — وقسمته غنيمة باردة بين العلوم — وخصوصاً السابق له واللاحق عليه فى الترتيب ، البيولوجيا والاجتماع ؟

و « مكدوجل » قد قام بنصيب محمود فى هذا السبيل : سبيل إعادة النظر فى العلم لإثبات وجوده وجعله أساساً لكافة العلوم الأخرى التى أنكرته . فهو قد راعه أن « من بين الذين يدرسون العلوم الاجتماعية قليل هم الذين يؤمنون بضرورة معرفة شىء عن العقل الإنسانى ومناهجه وعملياته وأن تقدم العلوم الاجتماعية يجب أن يقوم على هذه المعرفة . كما رأى أن بعض كبار المشتغلين بهذه العلوم — وخصوصاً أوجست كونت ومعاصره دوركايم « معاصر مكدوجل » ينكرون على علم النفس

وجوده أصلا — وأن بعضاً آخر يعترف بهذا العلم ولكنه يجهله أشد الجهل ، حتى يجلس الواحد منهم ليكتب مقالا فى الأخلاق أو الاقتصاد أو أى فرع آخر من فروع الاجتماع ، وهو مزهو بأنه لا يعرف شيئاً عن علم النفس . وهناك فريق ثالث وهم الغالبية تقريباً — يعرفون مكانة علم النفس ، ولكنهم حين يزاولون كتاباتهم الاجتماعية يقنعون بأن يجعلوا أساساً لها أشد أنواع السيكولوجيات غموضاً وعسراً ، يعبرون عنها فى أقوال عامة ، ويزيدون عليها من عندهم افتراضات عاجلة تناسب أغراضهم ومواقفهم . . . » .

يرى « مكدوجل » ذلك كله ، ويأسف كثيراً على أن هذا العلم « الذى يصوغ فى حقائق يقينية تركيب العقل وفاعليته ، والذى يحاول أن يكشف عن هذه المعرفة ويزيد عليها ، هذا العلم لا ينظر إليه بصفة عامة ، ومن الناحية العملية ، على أنه أساس جوهرى عام تقوم عليه العلوم الاجتماعية كلها من أخلاق واقتصاد ، وسياسة ، وفلسفة تاريخ ، واجتماع ، وانثروبولوجيا بشرية ، وسائر فروع الاجتماع الخاصة الأخرى ، وعلوم الدين والقانون والتربية والفن . . . الخ — ولكنه لا ييأس ولا يقنط ، وإنما يستبشر ويقول : « إن هناك بوادر تؤذن بأن هذه الحالة المحزنة السيئة توشك أن تزول وأن علم النفس يكاد بعد قليل أن يحتل موضعه فى أساس العلوم الاجتماعية بأسرها — وذلك هو الموضع الذى رأى أكثرهم بصيرة أنه يجب أن يشغله » .

ويقف « مكدوجل » على استحثاث هذه الرغبة وتعجل تلك الأمنية مجهوده كله ، كما يكيف بمقتضاه وجهة نظره ونظرياته — أما أنه وقف على هذه الرغبة مجهوده ، رغبة جعل علم النفس قاعدة للعلوم الاجتماعية كلها ، فذلك واضح فيما صدر به كتابه « مدخل إلى علم النفس الاجتماعى » من قوله : إنه لما كان غرض هذا الكتاب آن يقدم هذا التغيير والانقلاب المنشود ، فلعل من المناسب أن نقدم له ببحث فى هذه الأمور الحالية المعيبة عليه ، وكيف السبيل إلى إصلاحها بهذا التغيير الذى ندعو إليه ، لأن نقص معرفة المشتغلين بالعلوم الاجتماعية من الناحية العملية فى علم النفس لن يكون مرده إلى نقص فى هذا الأخير ، فيكون الطريق الوحيد للإصلاح هو سد هذا الخلل وإكمال هذا النقص . فماذا عسى إذن أن تكون هذه النقائص — ولماذا ظلت هكذا طويلا ؟ ذلك ما سنحاول

الإجابة عليه من غير أن ننحى بلائمة على طول مكثه بين الذين يحترفون علم النفس والذين يشتغلون بالعلوم الاجتماعية .

أما ما يأخذه « مكدوجل » على علماء الاجتماع والمشتغلين بكل نوع منه ؛ فهو أن تعرضهم للمشكلات الاجتماعية ؛ من غير أن تكون لهم فكرة راسخة ثابتة عن أية حقيقة نفسانية ، واضطرارهم إلى وضع فروض مختلفة حول العقل ؛ جعلهم لا يستمدون من النظريات النفسية إلا القليل من الفروض الذى لا غنى لهم عنه — وقد كان فى هذه الافتراضات من الحقيقة ما يكفى لأن يضمن لهم بعض الصدق . ولكنهم كانوا عادة من سوء الطبع بحيث لم يريدوا أن يتركوا مجالا — بل وكانوا يخفون حاجتهم — لتحليل أدق وأوسع . وحينما أخذ فى القرن الثامن عشر ومستهل التاسع عشر بالمبادئ الحديثة فى المنهج العلمى ، وطبقت على كل فروع الفكر الإنسانى ، وبدأت العلوم الاجتماعية تنسلخ الواحد منها عن الأخرى ؛ لم يكن بد من أن يستمر الباحثون فى كل قسم منها على نفس النهج ، محاولين أن يتلمسوا علل الظواهر الاجتماعية فى مبادئ قريبة رأوا خطأ أنها أساسية ومهمة . وذلك بدلا من أن يحاولوا تحصيل معرفة أعمق بتكوين العقل الإنسانى فى جوهره — على نحو من ذلك انصرفوا إلى البحث فى الاقتصاد والسياسة والتشريع والقانون — وكثرت فى ذلك علومهم وآراؤهم — نظريها وعمليها — دون أن يحاولوا العروج على أساس ذلك كله — وهو النفس . . . » .

فلما أن بدأ علم النفس يقرر ذاته بالتدريج كعلم مستقل ، وجد هذا القسم من ميدانه الذى يمت بصلة هامة ومباشرة إلى العلوم الاجتماعية ليس فيه إلا أشتات من فروض خاطئة ومضللة وضعها المشتغلون بهذه العلوم — وكان من الطبيعى أن يجدد هؤلاء سعيهم ، ويستأنفوا جهادهم ليحولوا دون استرجاع علم النفس ميدانه هذا الذى تعودوا أن يعتبروه خاصاً بهم — لأن محاولة هذا الأول استرجاع حدوده قد يفسد عليهم علمهم .

ومشكلة الحدود قد كانت مثار نزاع طويل فيما بين علمى النفس والاجتماع — هذا يريد أن يقوم فى أساس العلوم الاجتماعية كلها — إذ الفرد هو البذرة الأولى أو الخلية فى جسم المجتمع — وما لم يتعرف باحث الاجتماع على ملكاته ووظائفه النفسية فلن تقوم دراساته على أساس صحيح — وذاك يرى أن الفرد لا يقوم إلا فى المجتمع — وفكرة الفرد الواحد فكرة وهمية لا وجود لها — والإنسان منذ كان له وجود أسير

مجتمعه الذى نشأ فيه ، وهو إنما يصدر فى أفعاله عن العقل الجمعى وإرادة المجتمع . والنفس بالمعنى الفردى لا وجود لها إلا كوظائف فيزيولوجية — وإذن فالوظائف النفسية بعضها بيولوجى عضوى — وبعضها الآخر اجتماعى — ولا ظواهر نفسية خالصة . ولحل هذا الإشكال الذى يزيده تعقيداً أن الأساس الذى يقوم عليه لا يمكن أن يحدد وهو : أيهما أسبق ظهوراً : الفرد على المجتمع ، أم المجتمع على الفرد — أم هما نشئا معاً — وذلك هو الأرجح عند علماء الاجتماع — نقول : لحل هذا الإشكال أقترح علم النفس — علم النفس الاجتماعى — ولم يتقدم الاجتماع فى المهادنة بشىء ، بل تشبث بأن يكون له ميدان الظواهر الاجتماعية كله .

على أن هذا التعصب قد خفت وطأته الآن لدى كلا العلمين — إذ وجد كل منهما الخير فى أن يعكف على مسائله يدرسها — وتغلب علم النفس العام على بعض النزعات التوجيهية الأخرى لهذا العلم الناشىء ، وإن كانت لا تزال به بعد بقايا النزعة الاجتماعية متمثلة فى بعض تلاميذ « مكدوجل » .

وموقف « مكدوجل » هذا الذى وصفنا يؤدى به إلى أن ينقد علماء النفس السابقين أيضاً ، فهو قد أخذ عليهم أنهم حين حاولوا أن يعرفوا علمهم يميزوه عن غيره من العلوم ، قد انتهى بهم الأمر إلى هذا الميدان الضيق والأفق المحدود والتطبيقات المعدودة ، فوقفوا به عند هذا الحد . وعرفوه بأنه علم الشعور Science of consciousness وأن منهجه هو منهج الاستبطان . لأن التحليل الباطنى ووصف الحالات الشعورية كان من خواص علم النفس التى لا يشاركه فيها علم آخر — والتشبث بهذا المنهج الأوحد فى علم النفس هو ما أدى به — فيما يرى مكدوجل — إلى استمرار هذا الأفق الضيق المحدود الذى كان يجعل لهذا العلم ، لأن حياة الانفعال ، والدور الذى تقوم به الدوافع هو القسم من حياتنا العقلية الذى يقدم أقل مجال للاستبطان ملاحظة ووصفاً بينما عمليات المعرفة العقلية من ناحية أخرى ، تقدم مضموناً من الإحساس أو الشعور أخصب وأوسع ، يقوم عليه كشف باطنى وتحليل ووصف إذا قرن به الشعور الانفعالى كان هذا الأخير أقل سعة فى مضمونه — وحتى هذا المضمون القليل غامض ومستعص على الاستبطان .

والنتيجة أنه لما أحدثت أفكار « دارون » بعد ذلك بقليل ثورتها فى العلوم البيولوجية ، ولما أن حانت الفرصة لكى يأخذ النفسانيون لعلمهم مجالا أوسع ، وأن يقرروا حقوقه فى توسعة ميدانه ، هنالك أدخلت — فى تلك اللحظة الحاسمة —

المناهج التجريبية فى الاستبطان – فاستنفدت نشاط كثير من المشتغلين بهذه الفكرة هذه المناهج الجديدة التى أدخلت على ميدان كان يعمل فيه من قبل مجرد الاستبطان. فمكدوجل إذن يأسف على تضييع تلك الفرصة التى وضعها بين يدى علم النفس لكى يوسع ميدانه اكتشافات دارون فى البيولوجيا ، والتشاغل عن هـــذا الهدف الرئيسى بهذا المنهج الجديد الذى كان يستهوى – وما يزال يستهوى علماء النفس فى ذلك الحين – ويعنى به منهج التجريب السيكولوجى الذى نشأت معامله منذ ١٨٨١ على يد فونت وابنجهاوس وميلر وغيرهم. ويستطرد فيبين بالأمثلة هذا الانتقال الفج المبتسر premature annexation من أهم وأغمض منطقة فى علم النفس إلى علوم كان يقضى المنطق الطبيعى للأشياء أن تجد هى حقائقها النفسية الأساسية بين يديها كأساس ثابت تقوم عليه .

ولعل أشد أنواع الخطأ التى يقع فيها علماء الاجتماع حين يعرضون لمعالجة فرع من فروعهم على جهل بعلم النفس ، هو – كما يرى مكدوجل – أظهر ما يكون فى علم الأخلاق – لأن الباحث فى موضوع الأخلاق يصادف فى طريقه كثيراً من المشكلات النفسية – ولا بد له أن يعالجها أو يفلسفها على أساس سيكولوجى خالص . فالرواقيون – لنقص معرفتهم بالنفس – قد أدى بهم الأمر إلى أن يقولوا بأن من واجب الحكيم أن يستأصل انفعالاته من جذورها – والحال كذلك عند « كانت » فى قوله بوجوب تحرر العاقل من رغباته وشهواته – وأكثر فساداً من وجهتى النظر القديمتين هاتين محاولات أخرى حديثة ، يخص منها مكدوجل أنواعاً ثلاثة من الفروض الخاطئة العاجلة – التى لعبت دوراً رئيسياً فى توجيه الأفكار ، وفى إثارة المناقشات حول هذا الموضوع فى القرن التاسع عشر . ونعنى بها أولا نظرية اللذة النفسية psychological hedonism تلك التى تقول بأن كل دوافع النشاط فى الإنسان هى تحصيل اللذة واجتناب الألم – والفكرة الثانية المساوقة لهذه هى أن ينظر إلى السعادة واللذة على أنهما مرادفتان لمعنى واحد – وقد كانت هاتان الفكرتان أساساً لما قال به مذهب النفعية utilitarianism من آراء أفسدت العقول والأفكار . أما الفرض الثالث الخاطئ فهو هذا الذى يقول بوجود حاسة خاصة بالحدس الأخلاقى – وهو نوع من ضمير أو حاسة خلقية أو غريزة – تلك هى ثالثة الأفكار الخاطئة عن النفس التى عليها أقام الأخلاقيون مذاهبهم – وأسسوا آراءهم ، وفسروا بها السلوك الإنسانى ، والتى قام مذهب « مكدوجل » ، كما رأينا

فى عبارة ميرفى التى قدمنا بها بين يدى هذا البحث — بمثابة حملة عليها .

ويضرب « مكدوجل » لذلك مثلا — المقال الذى كتبه سجويك H. Sidgwick فى مجلة Mind المجلد الثالث ١٨٩٣ . والذى حاول أن يثبت فيه إمكان الفعل اللامعقول unreasonable action وأن هذا النوع من الفعل هو الذى يحدث عادة — وأشار فى ذلك إلى ما يقوله بنتام وجون استيوارت مل وغيرهما — مما يدل عنده على أن كل أفعالنا يجب أن توجه إلى ضمان أكبر لذة ممكنة — وما لم يكن من أفعالنا موجهاً نحو هذه الغاية لم يكن لامعقولا فحسب — بل لاخلقياً أيضاً immoral لأنه فعل بطريقة غير تلك التى يجب أن يعرف الفرد أنه ينبغى أن يأخذ بها — وبمثل ذلك قال جرين T.H. Green وإن استبدل باللذة الخير — ولكن الأساس عنده — كما هو عندهم — خاطئ .

ويعجب « مكدوجل » كيف أن سجويك — بدلا من أن يرفض ويحمل على هذه التصورات الخاطئة من أساسها لدوافع السلوك الإنسانى الشائعة بين من سبقوه — يتقدم فى حماسة ليدافع عنها — ويثبت أن الإنسان يفعل أحياناً بغير عقل — وأكثر من هذا — أنه ينبغى أن يكون كذلك سواء فى أفعاله الخيرة والشريرة — وينتهى به الأمر إلى أن يقول إن أولئك الفلاسفة الأخلاقيين الذين يدينون بهذه الآراء العجيبة فيما يتعلق بمصدر وطبيعة السلوك الإنسانى إما جاهلون تماماً بهذه الدوافع القوية التى تدفع الناس عادة إلى إتيان أفعال يعرفون أنها غير مشروعة أخلاقياً وأنها تتعارض مع خيرهم وتعوق سعادتهم ، وإما أنهم قد بلغ من تخلقهم بنظام نفسى صارم أن أخضعوا تماماً هذه الدوافع فيهم حتى لا يكادون يشعرون بها — وأياما كان الأمر — فمن سوء الحظ أنه قد أدى بهم إلى إقامة الاجتماع على أسس خاطئة واهمة — ذلك أن « مكدوجل » كما يقول ميرفى أيضاً — أهم الآثار الكثيرة التى نحصلها من كتابه هو بلوغ القصد attainment of the purpose (الذى عبر عنه فى مقدمته) باستبدال اللذة النفسية التى كانت ما تزال شائعة بنظرية ذات أساس من دوافع السلوك أو نظرية هورمية hormic theory [١] . »

والحال فى الاقتصاد السياسى كما هو فى الأخلاق — فقد عانى هو الآخر قسوة طبيعة علم النفس التى حاول أن يفسر بها حقائقه وكتاباته وقوانينه — ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا — والقائل هنا « مكدوجل » — إن الاقتصاد السياسى القديم كان مزاجا

---

(١) G.Murphy. : Same Source. ch. xx Instincts. p. 338

من نتائج خاطئة تقوم على مقدمات نفسية خاطئة أيضاً — ولا شك أن التقدم الحديث فى النظرية الاقتصادية إنما يرجع إلى الشعور بحاجة ماسة إلى تلمس أسس يقوم عليها أقل نقصاً — ويضرب « مكدوجل » مثالا للحالة الأولى — تلك الفكرة المقترنة بمذهب اللذة النفسية التى ذكرنا — والتى تجعل من الإنسان كائناً عاملا يسعى بفطرته وذكائه لخير نفسه — ويضىء له هذا السبيل حبه لصالحه — أى أن الخير كان هنا مقترناً باللذة — ومنه استدلوا على أن المنافسة الحرة فى سوق مفتوحة فيه تأمين لقلة الثمن مع كثرة العرض . وتلك نظرية يورد « مكدوجل » فى إبطالها كثيراً من الحجج . وعلماء الاقتصاد أنفسهم مسلمون بأن المنافسة الحرة على هذا الأساس الفردى مستحيلة ، بل لا بد أن تتأثر معظم الأحيان بعوامل اجتماعية يضحى فيها الفرد بصالحه الشخصى . أما ما يمكن أن يفيده العلم الاقتصادى من خير إذا أخذ بعلم النفس الصحيح ، فان « مكدوجل » يحيلنا فيه على ما كتبته مسز بوزنكيت Mrs. Bosanquet فى كتابها « معيار الحياة » The Standard of Life[1].

ومثل هذا يمكن أن نجده فى العلم السياسى . فكم من خطأ فيه يرجع إلى افتراضات سيكولوجية خاطئة كهذا التنبؤ الذى قالت به مدرسة منشستر The Manchester School عن الأخوة العامة المزعومة لبنى الإنسان — والتى سيؤدى به إليها هذا الشعور الذى يدفع به دائماً إلى ما فيه خيره. وقد حطمت هذا التنبوء تلك الصيحة التى دوت بها أوربا فى القرن الماضى — وتعنى بها الروح القومى .

وكذلك فى فلسفة التاريخ نجد هذا المنهج عينه فى الاستدلال من فروض عاجلة ناقصة ومضللة — إن لم تكن خاطئة من أساسها فيما يتعلق بعلم النفس — وأوضح مثل لذلك هذه الفروض التى جعل منها فكتور كوزان أساساً لفلسفة التاريخ عنده . فهو بعد أن يصر على ضرورة التحليل النفسى يتقدم فيقول : « إن وجوه الحياة الاجتماعية المختلفة ترد كلها إلى الميول الإنسانية التى تنبثق هى منها — وهى خمس رغبات أو حاجات رئيسية تتعلق كل منها بفكرة عامة : ففكرة النافع useful تثير العلم الرياضى والطبيعى والصناعة والاقتصاد . وفكرة العادل the just تؤدى إلى الاجتماع المدنى والدولة والتشريع — وفكرة الجميل beautiful تنتج الفن — وفكرة الله God تنشأ عنها العبادات والدين — وفكرة الحق فى ذاتها وفى أعلى درجاتها وأنقى صورها تؤدى إلى الفلسفة وهى

(١) G. Murphy. : Same Source. ch. xx Instincts. p. 338

أفكار بسيطة — وموجودة فى كل عصر — وفيها أساس الإنسانية كله على النحو الذى ذكرناه » . فهنا كما يقول « مكدوجل » فيلسوف كان له فى تفكير أمته تأثير كبير — وهو قد أدرك بحق ما هنالك بين علم النفس وعلوم الإجتماع من كبير صلة ، ولكنه لما لم يجد بين يديه منها ما يكفى فقد تعلل عنها بهذه القضايا الخمس التى أقنع نفسه بها . . . أما فلسفات التاريخ التى لا تهيب بأساس سيكولوجى — فإن خير من يعبر عنها فوييه M. Fouillé فى قوله : إن الاجتماع ينشأ فى الواقع من دراسة معظمها لاهوتى أو شعرى — أريد أن أتحدث عن فلسفة التاريخ كما كان يفهمها من قبل الميتافيزيقيون واللاهوتيون . والتى هى من الاجتماع الوضعى كالسيمياء من الكيمياء — وعلم النجوم من علم الفلك » .

وأخيراً فإنا نجد فى التشريع أو القانون نظرية كقانون العقوبات الذى ما يزال يقول به فى عهد « مكدوجل » طائفة من الكتاب غير قليلين . فإن التصور الوحشى للأسس التى يقوم عليها تبرير هذا القانون إنما ينشأ عن نظرية حرية الإرادة ؛ فان من يقول بهذه النظرية على أى نحو لن يكون عنده سبب للعقوبة إلا الجزاء retribution — وتبعاً لهذا الفرض المتعلق به فان مجرى الحوادث فى المستقبل لن يحدده الحاضر — والعقاب لا يقصد به إصلاح أخلاقى أو تحديد مستقبل للسلوك ، بل يقصد به — فيما يرى « مكدوجل » — انتقام وتأديب وجزاء على فعل مضى . فكلما أمعنا فى تفهم الدوافع الباطنة للإنسان استحال علينا أن نقول بهذه النظرية . فهنا أيضاً يعتمد تقدم القانون والتشريع على تقدم علم النفس .

وهكذا يمكن أن نتناول كل علم اجتماعى على حدة ، ونبين مسيس حاجته إلى نظرية صحيحة فى الدوافع الإنسانية — كما يمكن أن نلخص موقف علماء الإجتماع فى القرن التاسع عشر بقولنا : إن معظم المشتغلين بالعلوم الاجتماعية فى ذلك القرن فريقان : فريق تأثر بالنفعية الأخلاقية فرد كل دوافع الإنسان إلى نشدان اللذة وفقدان الألم — وفريق آخر مبتعداً عن نظرية اللذة هذه — قد حاول تفسير السلوك بهذه الملكة المبهمة الغامضة التى سماها حيناً الضمير أو الحاسة الخلقية . وأحياناً الغريزة أو الحس.

وما إن بدأ القرن ينتهى حتى تبين لكل من الطرفين فساد رأيه وإن لم يظهر ما يمكن أن يحل محلهما إذ يصلح خطأهما — ولم يتقدم علماء النفس بشىء يسدون به هذا الفراغ إلا بكلمة كالإرادة أو الميل إلى تقرير الذات وإثبات الوجود Self realisation ولأول مرة أعلن دارون فى كتابه منشأ الإنسان Descent of man

(١٨٧١) عن الدوافع الصحيحة للإنسان – مبيناً كيف ينبغى أن نتقدم معتمدين على منهج التاريخ الطبيعى والتاريخ المقارن – حتى نصل إلى فهم أوفى لها . ولكن نظرية دارون ظلت تعانى تحت تأثير الاحتجاج لنظرية اللذة النفسية التى ظلت مسيطرة فى ذلك الحين – وقليل من النفسانيين هم الذين ساروا على نهجه . وحاولوا أن يتموا هذا الهيكل الذى صوره لتاريخ الدوافع الإنسانية .

وهذا يكفى فيما يرى « مكدوجل » – لتصوير وجهة نظره التى من أجلها كتب كتابه فى « علم النفس الاجتماعى » وهو يلخص ما عالجه فى الفصل الافتتاحى من هذا الكتاب وهو الذى أوردنا حتى الآن كثيراً منه – بقوله : « إن علماء النفس يجب أن يقلعوا عن الاقتصار فى تصورهم لهذا العلم على هذا المعنى الجامد الضيق كعلم للشعور . بل ينبغى أن يعلنوا فى جرأة وصراحة قدرته على أن يكون علمياً وضعياً للعقل فى كل وجوهه وتأدية وظائفه – أوكما يحب هوأن يقول – إنه علم وضعى لتدبير الفرد conduct وسلوكه بازاء الجماعة behaviour[١] كما أن علم النفس يجب ألا ينظر إلى الوصف الباطنى لمجرى الشعور على أنه كل مهمته – بل على أنه مدخل لهذه المهمة . فان هذا الاستبطان أو السيكولوجيا الخالصة لا يمكن أن تنهض بنفسها علماً – أو على الأقل لا تعدل علماً وصفياً تفسيرياً – أو تكون ذات أثر كبير فى العلوم الاجتماعية – إذ المنهج الذى تنشده هذه هو علم نفس فيزيولوجى مقارن يقوم على مناهج موضوعية بملاحظة سلوك الإنسان والحيوان من كل نوع . وفى كل أحوال الصحة والمرض – يجب أن يكون لعلم النفس أكبر محيط ممكن ، وأوسع وظائف ممكنة ، كما يجب أن يكون تاريخاً طبيعياً لتطور العقل – وأولا وقبل كل شيء – يجب أن يهدف إلى إعطاء نظرية كاملة صحيحة لأشد عناصر تركيبنا جوهرية ، ولميولنا الداخلية فى الفكر والعمل تلك التى تكون أساس العقل .

ذلك – كما يقول ودورث R. Woodworth [٢] – هو النوع من علم النفس الذى قدمه « مكدوجل » إلى العالم فى سنة ١٩٠٨ . وقد استقبله بحماسة علماء النفس – كثير منهم وليس جميعهم – وأدى إلى كثير من المناقشات والكتب والمناهج الجامعية فى علم النفس الاجتماعى لدى علماء النفس – لقد خلق علم النفس الاجتماعى كفرع من علم النفس – وكان يعالجه من قبل علاجا شاملا علماء

---

(١) Mc.Dougall; Primer of Physiological Psychology Lond. 1905.

(٢) R.Woodworth; Contemporary Schools of Psychology chap. 6. p 204.

الإجتماع — كما تلقاه بميل شديد أيضاً طلاب العلم الاجتماعى . وبدا حيناً أنه هو الذى كانوا يتوقعونه — وأصبحت الغرائز كأساس للنظم الاجتماعية محور طائفة من الكتب لعلماء الاجتماع والاقتصاد — ويستطرد ودورث فيضرب المثل بجراهام ولاس G. Wallas كيف تبع « مكدوجل » فى كثير ولم يخالفه إلا فى قليل — ويتبع ذلك بكتاب آخرين تأثروا به فى كتاباتهم (هامش ص ٢٠٥ — المرجع المذكور) .

ويختتم « مكدوجل » مقدمته هذه بقوله ، ومن دواعى الغبطة أن هذه النظرة الواسعة إلى علم النفس توشك أن تظهر — فلم يعد العقل ينظر إليه بعد على أنه لوحة بيضاء tabula rasa أو مرآة سحرية magic mirror كل مهمتها أن تتلقى التأثيرات من العالم الخارجى ، أو تلقى انعكاسات ناقصة لموضوعاته — ولن نستطيع أن نرضى بعد عن فكرة « لوك » فى العقل بمبدئيه — تداعى الأفكار واجترارها والميل إلى نشدان اللذة واجتناب الألم — لقد ظهر الآن أن المحاولات السيكولوجية القديمة أشبه ما تكون بتمثيل مسرحية « هملت » مع الاستغناء عن أمير الدانمرك . أو محاولة وصف آلة بخارية مع الجهل تماماً بوجود قوة النار والقوى المولدة للحرارة عامة . وبالجملة فإنا نسمع فى كل مكان قولا بأنه ينبغى أن تحل محل السيكولوجيات الثابتة الوصفية التحليلية الخالصة سيكولوجيا أخرى ديناميكية وظيفية — تنظر إلى العقل نظرة اختيارية .

* * *

أرأيت إذن كيف كان « مكدوجل » حلقة فى تاريخ علم النفس لا بد منها ؟ ثم أرأيت إلى حماسته فى الدفاع عن هذا العلم ورغبته فى أن يكون أساساً للعلوم الاجتماعية كلها ، فاذا كان علم النفس قد نبذ الآن معظم النبذ هذه الفكرة ، وآثر أن يقتصر على ميدانه هو — ميدان النفس الإنسانية الفردية لا الجمعية ، فليس له أن ينكر على « مكدوجل » موقفه هذا منه — فإن حركة إنكار علم النفس التى قام بها الاجتماعيون لم يكن يطأمن من غلوائها إلا رد فعل حاسم قوى يناهضها ، ويتشبث بحقه فى السيطرة على كل فروع الاجتماع كما تشبث هذا من قبل بإنكاره وتقسيمه ، حتى إذا وقف الخصمان كل منهما بازاء صاحبه تبين لكل منهما غلوه وإسرافه — فيمكن حينئذ أن يتهادنا ويتفقا — وينتهى بكل منهما الأمر إلى أن يحترم

حقوق صاحبه ويترك له اختصاصه ويتخلى له عما ليس من شأنه – لأن فى ذلك إبقاء على حرية كل منهما واستقلاله .

وقليل هم الذين يستطيعون أن يتصدوا لما تصدى له مكدوجل – فهو قد تخلف عن الجماعة – وتخلى عن مسايرة الركب ليواجه العدو الآتى عليه من خلف يريد أن يقضى عليه ، وبينما استمر الآخرون فى طريقهم لا يحفلون بهذا الخطر المحدق بهم كان هو يتكفل بحمايتهم . ولا يتصدى لذلك إلا باسل – فلا بأس على مكدوجل – والحالة هذه – أن يقوم هو بحركة رد الفعل التى لا بد منها للتمكين لأصول علم النفس وإحيائه من جديد – وإذا هو لم يخرج من نزاله ذاك ظافراً بخصمه ومستولياً على غنائمه وأسلابه – فهو قد مكن لعلمه على الأقل أمام هذا الخصم الفتى الناشىء – وثبت له مركزاً قوى الأركان وطيد الدعائم يستطيع به أن يسير لا يتخلف ولا يتردد ولا يلتفت إلى وراء – وما زال به يؤازره ويعضده حتى تم له استقلاله ووجوده وكثرت مدارسه وتعددت مذاهبه ، وتهيأ له شىء من الثبات والاستقرار يتفرغ معه لعلاج مشكلاته .

يقول ودورث (١) : وتعهد مكدوجل بعد عمل مبكر فى علم النفس التجريبى والفيزيولوجى بالغ الأهمية – أن يضع فى سنة ١٩٠٨ أساساً للعلوم الاجتماعية – ومقدمته لعلم النفس الاجتماعى كتاب ظاهر الأهمية فى تاريخ عصرنا هذا – وقبل هذا العهد لم يقم علم النفس بمحاولة جدية ليكون فى خدمة العلوم الاجتماعية ، وإنما ترك لكل اجتماعى أو اقتصادى أو مؤرخ أن يتخذ له علم نفس يختص هو باستعماله – فإذا كانت هذه السيكولوجيات المرتجلة غير ناضجة – فذلك حقاً خطأ علماء النفس المختصين الذين لم يكلفوا أنفسهم مشقة اعتبار كيف أنهم يمكن أن يزودوا هؤلاء بعلم نفس يلقى ضوءاً على المشاكل الاجتماعية . لقد كانت السيكولوجية العلمية من الانغماس فى دراسة العمليات العقلية ، وفى تفاصيل الإحساس والذاكرة وتكون العادة ، حتى إنها نادراً ما مست مشاكل الدوافع – على أن العلوم الاجتماعية لم تكن تعنى بتفاصيل العمليات العقلية أو الحركية إلا أنها ربما شاءت أن تعرف دافع السلوك الإنسانى ؛ هل الناس يعيشون فى جماعات ويخضعون لحكومة بدافع الخوف من بعضهم البعض – أم بحساب أكبر فائدة لأكبر عدد ؟ أو لمجرد القصور الذاتى والتقليد ؟ وهل العقائد من عمل غريزة دينية ،

(١) R. Woodworth: Ibid. p 196- 197.

والسياسات نتيجة غريزة سياسية؟ وهل الضمير ملكة فطرية تميز الصواب من الخطأ ؟ فعلماء الاجتماع الذين أعوزهم حل هذه الأسئلة قد أخذوا فيها بأحسن إجابة عرضت لهم — بينما كان علم النفس يشتغل فى واد آخر ..

ومن هنا كانت ثورة مكدوجل على النظام القائم — فيما يرى هو — ثورة مزدوجة فهو قد اعترض على علم النفس السابق المهوش كما وجده فى العلوم الاجتماعية — واعترض أيضاً على النزعة العقلية التى كانت تسيطر وقتئذ على هذا العلم — وعلى الإيمان بأن منهج الاستبطان هو وحده المنهج الصحيح فى علم النفس — إذ أن حياة الانفعال والدور الذى تقوم به الدوافع — هما الجزء من حياتنا العقلية الذى يعطى للملاحظة والوصف الباطنيين أقل الميادين فائدة كما قلنا . أما الدراسات غير الباطنية فى الحيوان والأطفال والشواذ من المراهقين فقد كانت تبشر بكبير فائدة فى دراسة الدوافع ، ثم أن الميل إلى النزعة العقلية فى علم النفس قد أدى إلى افتراض أن السلوك الإنسانى كله عقلى وقائم على تدبر العواقب — ولو كان الأمر كذلك — فلم كانت عواقب بعينها موضع رغبة أكثر من غيرها ما لم تكن هناك رغبات أو حاجات أو دوافع أولية ؟ فكما أنه فى الهندسة يجب أن نقيم استدلالاتنا على بديهيات لا يمكن البرهنة عليها ، فكذلك السلوك يرجع فى أصله إلى دوافع أولية هى غير عقلية لمجرد أنها أولية (نهائية) وأنها بينة بنفسها للفرد .

« إنها القوى العقلية — مصادر النشاط — تلك التى تحدد الغايات وتنهض بمجرى كل فعل انسانى ؛ وليست العمليات العقلية لهذه القوى إلا خداماً وآلات ووسائل . (هذه القوى العقلية) هى التى يجب أن تحد بوضوح — والتى يجب أن يوضح تاريخها فى الفرد وفى الجنس ؛ قبل أن تستطيع العلوم الاجتماعية أن تبنى على أساس سيكولوجى ثابت ؛ وعلماء النفس الآن يغفلون بوجه عام هذه المسائل البالغة الأهمية من الناحية الاجتماعية » .(١)

واتخذ مكدوجل أساساً لهذه الدوافع الأولية غرائز الإنسان — على أنه لم يركز اهتمامه كله فى الحركات الغريزية ، ولم يقبل قط تصور هربرت سبنسر للغريزة بحسبانها سلسلة أفعال منعكسة . فالغريزة عند « مكدوجل » ليست مجرد فعل ضمنى حركى آلى . بل إن الحس المشترك ، كما لاحظ هو — غالباً ما يربط الغريزة بالانفعال . فالخوف مثلا يتحدث عنه هو وكأنه غريزة وانفعال — ومثل ذلك يقال

(١) W. McDougall. Introd. to Social Psychol. p-3.4.

فى الاستطلاع وفى غيره من الغرائز. وقد بدا له أنه فى الأحوال التى تتعلق بالمجتمع يكون طلب الغريزة هو الانفعال ، ولا يتميز الحس المشترك بصعوبة عن الانفعال إلا بوجود عنصر دافع فيه هو الذى يحفزه إلى الغرض . فالخوف يحمل معه نزوعاً إلى الهرب . والغضب يدفع إلى تحطيم الخصم » —وهكذا — فالغريزة عقلية كما هى حركية — وأكثر من هذا فهى تشمل فى جانبها الحسى ليس فقط الاستقبال السلبى للتأثير ، بل عزل الشىء المثير والانتباه له وإدراكه .

فالغريزة عند « مكدوجل » إذن هى دافع أولى ، وتحفز فطرى للعقل . وهى ليست مجرد ارتباط غير مكتسب بين منبه بعينه وحركة بعينها ، وانما هى عنده تنقسم إلى تهيؤ واستعداد لمتلق التنبيهات التى تثير النشاط — ثم أخيراً استعداد للقيام بحركات معينة تحدث تغييراً فى الموقف ، وبين الاستقبال والفعل هذين يوجد الانفعال أو الوجدان الذى هو صلب الغريزة كلها كما قلنا . فغريزة الخوف التى ذكرنا — أو قل غريزة الهرب ان شئت أن تسميها من ناحيتها النزوعية تشمل تثبيت الانتباه فى الشىء الذى يثير الخوف ، وانفعالا بالخوف من شأنه أن يحدث نزوعاً إلى الهرب — ثم الحركات المختلفة التى يتحقق بها هذا النزوع — بالفعل أو بالقوة — وقس على هذه بقية الغرائز التى أورد لها « مكدوجل » أكثر من تصنيف . وما زال يتوسع بها مبيناً ما يصاحب كلا منها من انفعال أو ميل أو عاطفة أو نزوع مقسما إياها إلى غرائز كبرى وغرائز أقل شأناً من الكبرى كالعطس والسعال والتبول والإخراج — نقول ما زال يتوسع بها حتى جعلها تشمل وتحد كل الدوافع الأولية اللازمة كتمهيد للأسرة والمجتمع والحرب والدين وسائر ضروب النشاط الاجتماعى الأخرى .

والغرائز لا يكتسبها الفرد — وإنما تسلم إليه بالوراثة — وهى الدفعات الأصيلة فى كل نشاط وفاعلية وبغيرها تكون الآلية العقلية والحركية أشبه بمعمل نزعت منه القوة . وإذن لكانت الآلة الإنسانية سلبية قابلة يدفعها أى تنبيه يتفق أن يأتى عليها — كالفعل المنعكس الذى يبدو أنه يدفع لساعته بهذه الطريقة ، ولكن السلوك الإنسانى مختلف عن سلسلة الأفعال المنعكسة ؛ فيختلف بما فيه من تلقائية واستقرار وغيرهمـــا .

ومع أن « مكدوجل » قد تشبث إلى هذا الحد بالغرائز الموروثة كدوافع أساسية ، فما كان له أن يغفل أهمية الاكتساب — فهو يستطرد قائلا ، إن الغريزة قابلة للتحول عن طريق خبرة الحيوان ، فغريزة الغضب أو المقاتلة يمكن تحويرها بطريقتين

— سواء من الناحية الحسية والناحية الحركية — والطفل ينمى عواطفه نحو أفراد كأبيه وأمه — ونحو أنظمة كالمدرسة والكنيسة مما يثير فيه مختلف الانفعالات — بل هو ينمى عاطفته نحو نفسه — عاطفة احترام الذات التى يعلق عليها مكدوجل أهمية كبرى فى ضبط النفس والتخلق ومبلغ التوفيق فى الحياة إذ تقوم عاطفة احترام الذات هذه خصوصاً على غريزتى السيطرة والخضوع — أو الاستعلاء والاستخذاء. فللمرء بطبعه رغبة فى القوة — ورغبة مكافئة فى تعرف مبلغ سلطة الآخرين والخضوع لها بلطف قليل أو كثير — وبقدر ما يميل المرء إلى الواحد منهما أو الآخر يتحدد احترامه لذاته وتتحدد شخصيته — فكثير من الاكتساب إذن يدخل فى اتجاه الفرد نحو نفسه .

وعلى هذا النحو يترك مكدوجل مجالا كبيراً للاكتساب سواء فى الناحية الحسية وفى الناحية الحركية ؛ ولكنه ما يزال يقول بأن صلب الغريزة والانفعال يبقى من الناحية العملية هو هو رغم كل اكتساب وخبرة . لأن هذا التصلب الانفعالى أو الدافع هو الذى يجعل للغريزة استمراراً . ويضرب لذلك مثلا الطفل والراشد — حين يستجيب أولهما إلى الإمساك بمرفقيه بالخدش أو العض أو القذف . وحين يستجيب الثانى إلى إهانة توجه إليه بالبت فى وسائل معينة ينتقم بها لنفسه ؛ فهما وإن قاما فى الظاهر بأفعال جد مختلفة — إلا أن هذين الفعلين المختلفين تجمعهما غريزة بعينها وانفعال بعينه . هو الغضب والنزوع إلى الإضرار بالخصم .

وليس بالطرق التى ذكرنا فحسب تتحور الغرائز — وإنما هى ترتبط فى ميول مركبة وعواطف . ويتحدث مكدوجل عن الغرائز وكأنها ميول منفصلة من الأصل. ولكنها ترتبط فى مجرى خبرة الفرد . فأكثر من غريزة واحدة تتعلق بنفس الشخص أو الشىء أو الموقف — وعن طريق هذا النوع من الربط تنمو عواطف الطفل الكبير والبالغ الرشد . فالوطنية عنده ليست غريزة ولا انفعالا أولياً ، وإنما هى عاطفة — لأن وطن الإنسان يرتبط بأكثر من غريزة واحدة ومن مجموع هذه الغرائز المرتبطة بالوطن تنشأ عاطفة الوطنية — فالوطن فى حالة الخطر يثير الخوف . وحين تعتدى عليه دولة أخرى يثير الغضب — وهو فى تنافسه مع الآخرين يثير تقرير الذات . والدولة كوطن لنا تثير فينا دائماً انفعالا بمحبتها — فهى مرتبطة بانفعالات وغرائز متعددة . وعلى هذا النحو تنمو فينا عاطفة الوطنية . وتصبح من القوى الدافعة فى سلوكنا .

والسلوك إذا نظر إليه من ناحية خارجية موضوعية يدل على نشدان الهدف – أو ابتغاء القصد – purpose وهؤلاء السلوكيون الذين يغضون بصرهم عن هذه الخاصة الرئيسية المميزة لا يمكن أن يعدوا دارسين للسلوك مخلصين – فنشدان الهدف goal seeking يتطلب الدوافع – والدوافع الأولى تقدمها الغرائز.

وفكرة القصد أو الغرض ، فكرة واضحة بارزة فى فلسفة مكدوجل النفسية. وهى عنده حقيقة لا شك فيها ، إليها ترد كل الحقائق الأخرى. والقصد كما يستخدم اللفظ بصفة عامة يشمل حقيقتين ليستا متساوقتين دائماً : التنبوء بنتيجة فعل معين ، والرغبة فى هذه النتيجة ؛ وذلك ما يحدث غالباً فى سلوكنا الإنسانى. وقلنا إنهما غير متساوقتين دائماً لأن الطيار فى مأزق معين ربما تنبأ أنه مقبل على الاصطدام بشجرة. ولكن ذلك ليس ما يقصد إليه وما يرغب فيه. ثم أن الطفل الجائع يصيح ويتخبط دون أن يكون لديه بالضرورة أى تنبؤ بالحالة التى يريدها أن تكون. ومن هنا فان مذهب القصد يعنى أسبقية المحاولة أو السعى أولى من أسبقية التنبؤ. وكثيراً ما يطلق عليه علم النفس الهورمى ليدل به على هذا الغرض (من hor-may باليونانية – ومعناها حافز أو دافع urge).

ومهما يكن من أسبقية الواحد أو الآخر – فان النشاط القصدى – كما يصر مراراً مكدوجل – ندركه على أنه نشاط عقلى – مع إدراك للموقف وتنبؤ بالنتائج التى سوف تحدث – وسعى نحو هدف – وارتياح لبلوغ هذا الهدف. تلك هى الحقائق الرئيسية التى يأبى علم النفس الهورمى أن يغفلها – فهو يقول بالمعرفة كحقيقة – ولكنه لا يقع فى النزعة العقلية وقوع المدارس السابقة فيها – ما دامت حقيقة الأول أن دوافع الحياة تجعل من الإنسان فاعلا ومريداً. وهو يرى أن القول بالسعى والارتياح لبلوغ القصد أو الوصول للغرض – يجعل فى مذهبه مجالا للقيم – ويقدم أساسا حقيقياً تعرض منه إلى الأخلاق وعلم الجمال فى الفلسفة.

والحق أن أكبر قيمة لسيكولوجيا القصد – كما قال مكدوجل نفسه – أنها تمهد بحقيقة القصد لاعتبار الفلاسفة الذين يريدون أن يتفهموا مجرى الطبيعة وحدودها الرئيسية. هل فعل الطبيعة آلى خالص – وكل حادثة تجد فيه يخبر عنها تماماً بما قد حدث قبلها – أم أنه يوجد مجال للتلقائية فى الطبيعة ؟ ولو أن علم النفس تقدم بحقيقة القصد كحقيقة نهائية ، فإن الفلسفة إذن سيكون لها شىء تستند إليه فى تأييد الغائية. فقصدية مكدوجل إذن تذهب إلى ما وراء ميدان علم النفس –

وهى نوع من العلية يكون السعى فيها نحو هدف بعينه ذا أثر على مجرى الحوادث — وهو يرى ضرورة معرفة العلية الغائية ليس فقط فى ميدان السلوك الإنسانى — بل أيضاً — وبغير جدال — فى ميدان السلوك الحيوانى ؛ بل هو يميل بشدة إلى أن يمتد بالفكرة حتى تشمل نمو الكائنات العضوية كما شملت سلوكها . وإذا هى شملت نمو الكائن العضوى الفردى فلم لا تشمل أيضاً تطور الكائنات الحية كلها ؟

ومن هنا — ونتيجة للتوسع بالقصدية هكذا خارج حدود علم النفس — يحدد مكدوجل سيكولوجيا القصد عنده تحديداً واضحاً قوياً فى قوله : إن مهمتى هى أشق مهمة لتحقيق علم نفس أكثر جوهرية وقصدية هو الموسوم بالهورمى ، وهو علم نفس . . . يقرر أن السعى القوى نحو هدف ما هو مقولة رئيسية فى علم النفس — وهو عملية من نوع لا يمكن أن يفسر بطريقة آلية أو ينحل إلى نتائج آلية »[١] .

وبعد أن يتطور الزمن فتشيع أفكار مكدوجل ويعم مذهبه الكثيرين من علماء النفس وغيرهم ، يقول « مكدوجل » فى شجاعة أكثر . « منذ خمسة عشر عاماً أظهر علماء النفس فى أمريكا دون استثناء تقريباً إغفالا تاماً لأخص وأميز وأهم طابع للنشاط الإنسانى والحيوانى — أعنى بحثه عن الهدف — فكانت جميع الأفعال الجسمية وكل وجوه التجربة استجابات آلية لمنبهات — وكان كل اكتساب تحويراً لهذه الاستجابات بإضافة استجابة إلى أخرى تبعاً لمبادئ الربط الميكانيكى . . . أما الآن فكل شىء لحسن الحظ قد تغير . فإن علماء النفس الحيوانى قد بدءوا يدركون أن أى وصف لسلوك الحيوان يغفل طبيعة بحثه عن الهدف فهو تافه . . . وهم الآن مشتغلون بدراسة الدوافع والأوضاع والبواعث الداخلية .. وذلك الاهتمام ظاهر حتى فى الكتابات الأمريكية الجارية فى علم النفس البشرى ، فالدافع بعد أن كان مجهولا تقريباً قد أصبح ذا أهمية رئيسية — ومع هذا فنحن فى فترة انتقال . وما تزال هذه المعرفة الطبيعية القصدية للنشاط الإنسانى جزئية وغير مرضية ... » .

تلك هى صفحة من تاريخ علم النفس ، سطرها رائد علم النفس الاجتماعى وليم مكدوجل .

كمال دسوقى

(١) C. Murchison: Psychologies of 1930. Clark University Press P. 403

وليم مكدوجل William McDougall

١ — ولد في لانكشير بانجلترا فى يونيو ١٨٧١

٢ — منشستر (١٨٨٧ ١٨٩٠) وكمبردج (١٨٩٠ – ١٨٩٤) ومستشفى سانت توماس بلندن حتى ١٨٩٨ وأيضاً فى جتنجن (١٩٠٠) وحصل على درجة في الطب من كمبردج

٣ - عين زميلا لكلية سانت جون بكمبردج (١٨٩٨) فحاضرا في يونيفرستى كوليج بلندن (فى علم النفس التجريبي) فحاضرا فى الفلسفةالعقلية بجامعة اكسفورد (١٩٠٤—١٩٢٠) فأستاذاً لعلم النفس بجامعة هرفارد (١٩٢٠—١٩٢٧) — ومنذ سنة ١٩٢٧ صار أستاذا لعلم النفس ورئيساً لهذ القسم بجامعة ديوك في كارولينا الشمالية

٤ — أهم كتبه: علم النفس الفيزيولوجى .Physiological Psychol (١٩٠٥) المدخل إلى علم النفس الأجتماعى .Introd. to Social Psychol (١٩٠٨) الذى ظهرت الطبعة العشرين سنة ١٩٢٦ والجسم والروح Body and Mind ١٩١٢ (ظهرت طبعة السادسة ١٩٢٣) وكتابه : علم النفس : دراسة السلوك — ١٩١٢ وكتابه : العقل الجمعي The group mind وهو يقول تخطيط لمبادىء علم النفس الجمعي مع محاولة لتطبيقها على تفسير الحياة والطابع القوى (١٩٢٠) — وكتابة: تخطيط لعلم النفس المرضى .Outline of Abnormal Psychol ١٩٢٦ بعد كتابه .Outline of psychol وكتابة : طاقات الإنسان The Energies of Men ١٩٣٣ (١٩٢٣) وتجد قائمة كتبه وبحوثه حتى سنة ١٩٣١ في سجل مرشسون — ج ٣ ص ٣٢٦ – ٣٢٨ .